(٤) ولتر ليبمان:

ولتر ليبهان من المفكرين الأمريكيين الرواد الذين تركوا بصماتهم واضحة على مجالات عديدة، فى مقدمتها: الصحافة والسياسة والتاريخ والاجتماع والفلسفة والحضارة والأخلاق والدبلوماسية، وكانت مقالاته ودراساته وكتبه وأحاديثه بمثابة الدفة التى وجهت الأفكار والرؤى إلى آفاق مضيئة ومتبلورة، وسط تيارات صاخبة ومتلاطمة فى خضم الحياة الأمريكية. وقد ولد عام ١٨٨٩ لأسرة محبة للتعليم والثقافة، وحرص أبواه على أن يصحباه معهما فى زياراتهما لأوروبا، وشجعا فيه ميله المبكر إلى الفن والنقد الأدبى. وفى عام ١٩٠٩ تخرج فى جامعة هارفارد حيث لفت إليه أنظار اثنين من كبار الفلاسفة الأمريكيين وليم جيمس وجورج سانتيانا. واستمر فى دراساته العليا أربع سنوات، درس فيها بعد ذلك الفسلفة، وبقيت صلته بجامعة هارفارد لا تنقطع طوال حياته حتى وفاته فى عام ١٩٧٤، وظل عضوًا بمجلس الأمناء فيها من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٩ .

ومنذ مطلع حياته، سطع نجمه فى الحياة الأمريكية سواء الصحفية أو السياسية. وتجاوزت شهرته الحدود الأمريكية، فكان على صلة حميمة بكبار مفكرى أوروبا من أمثال هـ. ج. ويلز، وجورج برنارد شو، والاقتصادى البريطانى الرائد جون مايناردكينز، الذى كانت نظريته التى عرفت باسم «دولة الرفاه» خير وسيلة عبرت بها أوروبا كوارثها الاقتصادية التى ترتبت على الحرب العالمية الثانية. وقد اكتشف المؤرخ والناقد الاجتماعى لنكولن ستيفنز فى ليبهان ما وصفه بأنه: «العقل القادر على التعبير فى كتاباته عما يدور بخلده، إذ يدرك تمامًا أبعاد كل معنى استوعبه وهضمه». ورأى فيه الليبراليون والمفكرون الاشتراكيون شعاعًا جديدًا أضاء دهاليز الفكر الأمريكى، كما أنه التحق بالجمعية الغابية التى طورت مفهوم الاشتراكية فى بريطانيا. وفى الرابعة والعشرين من عمره، دعاه هربرت كرولى للعمل فى صحيفة « نيوريببلك » التى نشر فيها «أشعار» «بول ماريت» عام ١٩١٣، وكتابه الرائد «مقدمة فى السياسة» فى العام نفسه. وقد اعتبره إرنست جونز مؤرخ سيرة فرويد أول تطبيق للفرويدية على السياسة. وبعد ذلك توالت دراساته وكتبه، التى تجلى فيها كمفكر وفيلسوف قادر على تحليل مجتمعه وعصره بأسلوب رصين ومنطقى، لا يحمل أية أعراض انفعالية ، كما فعل فى كتاب «التبعية والقيادة» (١٩١٤)، و«دعائم الدبلوماسية» (١٩١٥)، و«الحرية والأخبار» (١٩٢٠)، و«الرأى العام» (١٩٢٢)، و«مقدمة فى الأخلاق» (١٩٢٩)، و«التفاسير: ١٩٣٣ – ١٩٣٥» (١٩٣٦)، و«الحتمية الجديدة» (١٩٣٥)، و«المجتمع

الصالح» (١٩٣٧)، و«السياسة الخارجية للولايات المتحدة» (١٩٤٣)، و«أهداف الولايات المتحدة من الحرب» (١٩٤٤)، و«الحرب الباردة» (١٩٤٧)؛ و«الفلسفة العامة» (١٩٥٥)، و«نحن والعالم الشيوعى» (١٩٥٩). وفى عام ١٩٦٢، فاز ليبمان بجائزة بوليتزر كمراسل صحفى دولى.

وبالإضافة إلى النشاط النقدى والأدبى الذى ميز جهود ليبمان فى مطلع حياته، كان نشاطه السياسى مسيطرًا عليه لدرجة أنه انفرد بكل إنجازاته بعد ذلك؛ وخاصة بعد أن أدى الخدمة العسكرية فى الحرب العالمية الأولى نقيبًا فى المخابرات الحربية، وعمل مع الكولونيل إدوارد م. هاوس وايزايا بومان فى وضع شروط الصلح الأمريكية، وقام بإعداد ثمانى نقط من الأربع عشرة نقطة، واشترك بعدها فى مؤتمر الصلح فى باريس. وظل يشارك فى تحرير صحيفة «نيوريببلك» حتى عام ١٩٢١. وكانت فترة من النمو الفكرى الهادىء. مرّ فيها منهجه الفكرى بمتغيرات عديدة، كتب عنها آرثر شليزنجر (الابن) قائلاً: «إنه ولد فى ذلك العصر الفيكتورى الهادئ عام ١٨٨٩، ليجد نفسه فى مواجهة عصر يجيش بالتقدم، فاعتنق الاشتراكية قبل أن يترك هارفارد عام ١٩١٠، إلا أن اشتراكيته سرعان ما تلاشت ظاهريًّا لكنها ظلت كامنة فى أعماق فكره، فخلفت بقايا راسخة بدت فى صورة من الإيمان بضرورة التخطيط العقلى والنظرة العلمية السديدة التى تسعى للتحكم فى فوضى المجتمع الحديث».

وقبل أن يكتب ليبمان ذلك، عبر عن إيمانه بأن الناس يعيشون حقبة ثائرة حافلة بالقلق، تمر فيها القيم بنوع من التغير البعيد المدى بلا حدود، وصرح فى كتابه «مقدمة فى الأخلاق» بأن ما أسماه «أحماض التمدين» تذيب القيم السائدة، وقد رأى فى حملة تيودور روزفلت عام ١٩١٢، أول جهد سياسى من نوعه يتصدى لتحديات النظام الصناعى، إلا أن حماسه لروزفلت سرعان ما تضاءل، عندما لجأ إلى العدوانية كحل حاسم للمشكلات التى واجهها. وبعده جاء ودرو ويلسون ليرى فيه ليبمان مع صحبه أمل أمريكا إن لم يكن أمل الإنسانية جمعاء، إلا أنه اكتشف أن الانحراف والعمل الذى لا يقوم على خطة فى الأنظمة الديمقراطية لابد أن يضر بالمجتمع، إذ إن الحكومة النيابية تتعرض للخطر، إذا ما فشلت فى توجيه الموارد القومية توجيهًا مثمرًا يتواءم مع المتغيرات الحادة لهدف محدد مرسوم، وقد أعلنها ليبمان صريحة أن الكونجرس أصيب بخلل لا يمكن تجاهله، وأصبح فى أشد الحاجة لتنظيم جديد. وإلى ما قبل السبعينيات من القرن الماضى بزمن طويل حين كانت رئاسة الجمهورية بمثابة إشكالية مطروحة لنقاش ممتد وجدل لا يتوقف، حذر ليبمان من هذا النشاط

المحموم الدائر حول أعلى مركز للقرار فى الولايات المتحدة، والقصور البادى فى كافة الجهات الإدارية الأخرى، والرئيس مثقل بكل أعباء المستبد العادل أو الطاغية المحسن، لكنه يرفض أن يجعل السلطة ذات أثر واضح فى جعل الحياة أكثر راحة وطمأنينة. ويواصل ليبهان تحليله للمأزق المستحكم، فيقول:

«إننا نتوقع من هذا الإنسان الفرد أن يعبر بلسان الشعب وأن يصوغ مطالبه، وأن يضع لها البرامج الكفيلة بتنفيذها، كما نتوقع منه أن يلقى بها وبالبرامج المعدة لها إلى هذا النظام الحزبى المتطفل، وأن يحمل حزبه على تأييدها، وأن يبدع نظامًا إداريًا هرميًا عفًّا طاهرًا يحقق له أهدافه وخططه. ونتوقع منه أن يلقى نظرة إلى الروتين الذى يسيطر على اهتمامات الجماعة، وأن يعد للمستقبل، وأن يكون له نصيب فى كل ما صنعته يداه. وما من إنسان يستطيع أن يقوم بذلك».

وكان ليبهان فى كتاباته الأولى مؤمنًا إيمانًا عميقًا بدور الاشتراكية فى التخطيط بحكم أنها كانت التجسيد العملى لروح العصر، ولكن هذه النظرة العامة كانت تنطوى فى داخلها على نزعة أصيلة للروح المحافظة، وتأييد للنظام، وثقة راسخة فى هدى العقل، وبلغت هذه النزعة قمتها فى مؤلفه الكبير «الفلسفة العامة» (١٩٥٥)، وهو كتاب من العمق والخصوبة لدرجة أنه لقى على غير المألوف القليل من التقريظ، إذ لم يكن السياسى هانز ج. مورجنتو فى عرضه للكتاب، ما طاف به من آمال فى وضع مستويات موضوعية تمنهج العمل السياسى وتمهد له، فيقول:

«إنه كتاب يبعث الأمل النبيل فى إحياء مثالية القرن الثامن عشر العقلية، والإعلاء من شأن العقل لتغيير الفلسفة التى يحتذيها الناس ويعيشون حياتهم عليها. إن مستر ليبهان يؤمن بأن الناس قادرون فى سلوكهم وأفكارهم السياسية على أن ينهجوا منهجًا عقليًا طيبًا، وأن هذا الاتجاه هو الأساس الثابت لفلسفة عامة، وقد حاولنا هربرت بترفيلد، ورينولد نيبور وأنا وآخرون غيرنا، أن نبرز مدى ما يحيط بالعلاقة بين العقل والسياسة من خلط وإبهام بأكثر مما ساقه ليبهان بإيمانه العقلى وتواضعه الجم».

ويقرر مورجنتو أنه بالغ كثيرًا فى نقده وفى تقنينه لهذا المنظور، ومع ذلك كانت عقلية ليبهان السياسية ركيزة لكتاباته. ففى مقالة فى أول عدد من أعداد صحيفة « نيوريببلك »، يبدأ بقوله: «ما من إنسان عاقل إلا ويدرك تمامًا أن بناء مدينة أصعب بكثير من هدمها، وأن فلاحة حقل أكثر جهدًا من تخريبه، وأن غزو شعب أيسر من رعايته والقيام على خدمته، وأمل الإنسان فى أفكاره لا فى بنادقه ومدافعه، وأن أفكاره وحدها هى أعظم سلاح لقهر النزعة إلى الإرغام. وعقل الإنسان هو الذى يعى معنى

السلاح، وهو الذى يقرر حشد الجيوش وتسليحها، كما أن الناس هم الذين يقيمون ترسانات الدمار التى اتسعت وانتشرت بحيث فقدوا القدرة على السيطرة عليها. ومع ذلك فإن هذا الإنسان هو وحده القادر، إذا ما أراد، فى المستقبل على قمع الحرب، إذ إنه صاحب القرار فى إيقافها أو استمرارها، ومن هنا يتحتم عليه أن يصون الحضارة بحيث لا يتسنى لأى آلة أن تكون أداة للغدر بها. لكن هذا الوعى يحتاج إلى عقل كبير ليصنع المحراث كما يصنع السيف، إذ يتحتم عليه أن يتسلح بقيم إنسانية عليا حتى يفضل صناعة المحراث على السيف».

وقد بدأ ليبمان مساره العقلانى بتلك الأفكار والتوجهات التى سعت صحيفة «نيوريببلك» للدعوة إليها، وفى مقدمتها الاشتراكية والويلسنية ومعارضة توازن القوى، الذى يضع العالم على حافة الهاوية. فقد كتب فى ٢٧ يناير ١٩١٧ مؤكدًا أن توازن القوى لم يؤد إلى صيانة السلام فى أوروبا، ولن يتحقق له ذلك، لاستحالة وجود هذا التوازن الذى يحتم التساوى فى قوة الردع لدى الأطراف الداخلة فى الصراع، لأنه لا يوجد الطرف الذى يمتلك المعرفة الكافية عن حجم ونوعية القوى التى يمتلكها الطرف الآخر الداخل فى معادلة المواجهة. وحين كوّن الرئيس وودرو ويلسون جماعة من الخبراء للإعداد للسلام بعد الحرب العالمية الأولى، اختاره سكرتيرًا لها، وأسهم فى وضع النقاط الأربع عشرة، وشارك فى صياغة الديباجة الرسمية التى عرضها الكولونيل هاوس فى المفاوضات التى سبقت الهدنة. وأيد اتجاه الرئيس ويلسون فى اعتباره أن هدف الحلفاء من ألمانيا أن يكونوا «صانعى سلام وليسوا فاتحين»، وأن تسوية ما بعد الحرب يجب أن تنهض على الوفاق بين القوى دون العمل على توازن القوى، لأن الوفاق مطروح دائمًا للتفاوض والتفاهم، أما التوازن فعملية خادعة لأنها مبهمة، ولا يمكن ضبطها أو تقنينها.

وبعد ما كتبه هذا بأقل من شهر، حاول ليبمان فى ١٧ فبراير ١٩١٧، أن يحذر الرئيس ويلسون من أن الأخلاق والشرعية كعنصرين ضروريين لا يكفيان وحدهما؛ لأنه لا يمكن الاستغناء عن استراتيجية فعالة للحرب والسلام. فيقول إن: «الشعوب الضعيفة هى التى يسيل لعابها للحرب. ولا تدرى لماذا، ولا كيف ولا أى الأمرين». وليس هناك من يستطيع أن يدين الحصار البريطانى، أو حرب الغواصات الألمانية طالما أنه يدين الحرب عامة على سبيل المبدأ الذى لا يعرف الانحياز إلى جانب دون الآخر. وعلى أية حال، فإن الاختيار بينهما، لا يعنى أن تختار الولايات المتحدة الشرعية على اللاشرعية أو الرحمة على القسوة، ولكن كما يقول «إذا كنا لا نرضى بانتصار ألمانيا، فإن ذلك لا يعنى أن نغلق البحار فى وجهها، وأن تبقى مفتوحة فى وجه الحلفاء». ولو

استمع العالم الغربى لهذا الرأى المصيرى لليبهان، لما وقعت الحرب العالمية الثانية بعد ذلك باثنين وعشرين عامًا، لأن الانفجار الألمانى الهتلرى فى أول سبتمبر ١٩٣٩ كان بسبب غلق البحار فى وجه ألمانيا منذ هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى. وكان دعم ليبهان لإرساء قواعد السلام متطابقًا إلى حد كبير مع الجهود الحثيثة، التى بذلها جورج كينان لإبعاد شبح الحرب وكابوسها عن العالم، وخاصة عندما قال:

«نحن قوم لا نرضى بغير الشرعية، وقد حجبنا اتجاهاتنا الحقيقية فى غلالة من المصطلحات الفنية... فنحن ننشد مساعدة الحلفاء، ونريد أن نعوق ألمانيا، إلا أننا نود بالتالى أن نبقى بعيدًا عن الحرب، ولهذا انساقت حكومتنا إلى الخلط بين هذه المصطلحات الفنية والنقطة الفاصلة، وأخفينا أهدافنا المنحازة تمامًا فى أردية من تعبيرات الحياد».

وكان ليبهان حريصًا على وضع الأمور فى نصابها حتى لا تدخل السياسة الأمريكية الخارجية فى متاهات هى فى غنى عنها، ويجنب بالتالى السياسة الدولية من مواجهة عراقيل وعقبات قد تهدد السلام العالمى برمته. فقد كان ليبهان أول من أوضح بجلاء شديد منذ الحرب العالمية الأولى، أن قدر العالم أصبح عملة ذات وجهين لا يمكن أن ينفصلا، وهما السياسة الأمريكية الخارجية والسياسة الدولية، ومن هنا كانت ضرورة مواجهة الحقائق والوقائع بعيدًا عن أية شعارات أو تهويمات. ولذلك كان أول من أكد أن ما يحارب من أجله الأمريكيون هو أمن الأطلنطى وسلامته؛ لأنه يمس المصير الأمريكى فى الصميم، وليس لأن أمريكا هى رسول العناية الإلهية لانقاذ البشرية. فهو يتساءل:

«لماذا؟ لأن على ضفتى الأطلنطى اتسعت شبكة المصالح العنكبوتية التى تنطوى على العالم الغربى كله: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وحتى إسبانيا وبلجيكا وهولندا والشعوب الاسكندنافية مع المجموعة الأمريكية فى وحدة تامة من المصالح الحيوية المهمة... وهى مصالح تربط بين جميع هذه الدول فى هذا المحيط، الذى يصل فيما بينهما..... فإذا انهارت هذه المجموعة فإننا لابد وأن ندرك مدى خسارتنا، ومن ثم فإن علينا أن نعى تمامًا ما تعنيه حدود كندية مفتوحة، والحماية المشتركة التى تضطلع بها الأساطيل البريطانية والأمريكية لأمريكا اللاتينية».

فالقضية هى قضية مصالح مشتركة ومتبادلة أولاً وأخيرًا، وفى هذه الحالة فإن الكلمة الأولى والأخيرة هى الحقائق والوقائع الرابضة على الأرض. فإذا كانت ألمانيا قد نقلت ميدان الحرب إلى الأطلنطى، عندما خرقت حياد بلجيكا فى غزوها لفرنسا، وضربها لبريطانيا ومحاولتها إزعاج الولايات المتحدة، فإن الحياد عملاً وقولاً يغدو

ثرثرة فارغة بعيدة عن الحقيقة، وإذا انتصرت ألمانيا فى أعالى البحار فإنها تتزعم الشرق ضد الغرب، ويصبح فى إمكانها أن تقود التكتل الألمانى الروسى اليابانى ضد دول الأطلنطى، وبالتالى ينقلب ميزان القوى إلى صالحها، وهو ما لا يمكن أن تقبله الولايات المتحدة ، وخاصة أن فكرة العزلة الأمريكية كانت قد فقدت كل مقومات وجودها.

ولم يمر على هذا التحليل العلمى والعملى الموضوعى الذى أورده ليبهان، أكثر من عامين، إذ إنه فى ٣ سبتمبر ١٩١٩، انفصمت عرى العلاقة الوثيقة بين ليبهان وويلسون . ومع ذلك فإنه برغم تقادم العزلة الأمريكية، فإنه ليبهان ظل يتساءل عما يمكن أن يحل محلها، شاعرًا بخطورة اندثار القديم دون أن يملأ فراغه جديد متبلور الملامح ومتسق التوجهات. وخاصة عندما أعلن الرئيس ويلسون: «أن ما جرى لم يرد على بالنا من قبل، ولكنها إرادة الله... ولا نستطيع أن نعود إلى الوراء، وعلينا أن نمضى قدمًا بجباه مرتفعة شامخة، وأمل غامر لتحقيق هذه الرؤيا»، إلا أن ليبهان يرى أنه بالفعل لا يستطيع أن يعود إلى الوراء لأن الزمن يسير فى اتجاه واحد، وأن عليه أن يمضى قدمًا لتحقيق رؤياه، لكن ليبهان تساءل: أية رؤيا وأين؟ وبلغته الناصعة الشفافة، اتجه إلى الرئيس ويلسون شارحًا رأيه:

«من الخصائص الكامنة فى فكرة اللاعزلة الجديدة أنها تقود إلى الدمار، فالفكرة القديمة كان لها على الأقل ملامحها المتبلورة، أما الفكرة الجديدة فلا تعدو أن تكون انحرافًا إلى خط جديد غير محدد، ولهذا، فإنى أرى أنها لا تعدو ما كان موجودًا فى العام الماضى. فإذا كنا قد اخترنا أن نكون «شركاء»، فإننا قد نسينا أن نحدد خصائص هذه الشراكة وآفاقها، وإذا كنا قد قررنا أن يكون لنا دور فى الشئون الدولية، فإننا فى فرحتنا قد نسينا أن نعرف إلى أى مدى وعلى أى وضع».

وقد عاد هذا التشتت الفكرى إلى الظهور عندما أخذ ليبهان يندد بسياسة احتواء الشيوعية فى شتى بقاع العالم. وهى فكرة الاحتواء التى نادى بها المفكر السياسى والدبلوماسى الأمريكى الكبير جورج كينان، والتى كانت تهدف إلى احتواء الشيوعية ومحاصرتها فى الأماكن التى ربضت فيها؛ حتى لا تنتشر كالنار في الهشيم في الدول وبين الشعوب التى مزقتها وأنهكتها الحرب العالمية الثانية. لكن الإدارة الأمريكية انحرفت بمفهوم كينان للاحتواء؛ لتحوله إلى الهيمنة الأمريكية على مقدرات العالم أجمع، وبالتالى يمكنها القضاء على الشيوعية وليس مجرد احتوائها. وكم هاجم كينان هذا التحريف لنظريته لكن لا حياة لمن تنادى. وقد عانى ليبهان مثلما عانى كينان من

إصرارهما على عدم الربط بين نظرية الاحتواء وسياسة الهيمنة الأمريكية التى يمكن أن تدخل بالعالم أجمع فى متاهات لا حدود لها.

ولم يفقد ليبمان بوصلته الفكرية والعقلانية أبدًا، فقد كان حريصًا على نظرته الثاقبة ورؤاه الشاملة فى عالم مكفهر غاضب خال من الرشد. فهناك خاصيتان ثابتتان بعمق فى كتاباته كمحورين فكريين يميزان معظم كتاباته، ويتمثلان فى إيمانه الراسخ بالتغير والاستمرار. وكثيرًا ما بلور رسالته الفكرية فى محاولته الوصول إلى تعريف محدد لآليات الخلل المتزايد الذى يسود المجتمع الغربى، وإعادة فتح أبواب جديدة للحوار حول القضايا الكبرى، التى يرفض أن يأخذها على علاتها لأنه، على طريقة سقراط، يؤمن بأن كل فكر قابل لإعادة تقييمه من زوايا لم تطرق من قبل. ولذلك واظب على أن يعيد النظر فى كل الاحتمالات، التى مر بها فيها احتمالاته هو نفسه، وجاهد جهادًا لا يهدأ من أجل البحث عن احتمالات نظام جديد فى عصر تسوده الفوضى والضياع والإيقاع اللاهث الذى لا يتيح فرصة للتفكير العقلانى المتأنى، من أجل أن يصل بأبناء عصره إلى بر الأمان الفكرى والمعيشى. وكان همه الأساسى يتمثل فى نشدان حقائق ثابتة وراسخة بقدر الإمكان بحيث تصبح أساسًا لحياة بشرية لائقة.

وليس من المبالغة فى شىء أن يُجمع أهل الفكر والصحافة على أن ليبمان هو أحسن صحفى عصره، وربما أقواهم وأعمقهم تأثيرًا، لدرجة القول بأنه لا يوجد مثيل أو شبيه له فى كتاباته، التى تعتبر فى مقدمة الكلاسيكيات الصحفية على مستوى العالم، وذلك على حد قول آرثر شلينرنجر (الابن) المؤرخ والأستاذ بجامعة هارفارد، والذى يعتبر فى مقدمة من درسوا إنجازات ليبمان باستفاضة، وخاصة عموده اليومى الشهير: «اليوم وغدًا» الذى كان نموذجًا يضرب به المثل فى سلاسة اللغة، وفى تقصى كل ما يتصل بموضوعاته التى يكتبها، وفى نظرته الثاقبة البعيدة التى لا تخيب، وفى رغبته الجياشة فى أن يهدى الناس إلى حقائق السياسيتين الخارجية والداخلية. وما من أحد غيره تصدى لكشف قوة التقاليد وقوة التغير، أو استطاع أن يبعث الإجلال والتوقير لقيم خلدها الزمن، أو صور فوضى الحياة العصرية التى جعلت النسيج السياسى والاجتماعى يهترئ ويحتاج إلى إحياء قدرته على تشكيل القيم الخالدة وإعادة صياغتها وتوظيفها فى الحياة العامة.

وكرائد ينشد الرشد ويهتدى بنور العقل، ظل ليبمان يضىء الطريق ويكتشف عن حقيقة المشكلات التى يضطرب بها العصر دون إدعاء بأنه سيأتى بالحلول التى لم تخطر ببال أحد، إذ كان فى منتهى التواضع الذى يرتبط بكبار العلماء والرواد. وفى عموده المتميز الذى ظل يكتبه فى صحيفة «نيويورك هيرالد تريبيون»، لم يدع إطلاقًا أنه قادر

على تقديم إجابات لا تحتمل أى خطأ أو قصور. وكانت تحليلاته وتعليقاته المتتابعة عن مجريات الأمور السياسة الراهنة، توحى بأن السياسة القائمة مبهمة وخاطئة، بل وأقرب إلى مضاعفة أسباب العلة منها إلى شفاء المرض الذى توظف من أجله. ومع ذلك فإن ليبمان أستطاع أن يدرك النوايا الطيبة وخفايا السياسة التى تتحكم فى مجرى التاريخ، وبرغم ضيقه بالعاطفية السطحية والتفاهة العقلية، فإنه لم يكن مجرد آلة حاسبة، ولم يكن مجردًا من العاطفة والتأثر الإنسانى. فمثلاً فى كتابه «رجال الأقدار» (١٩٢٧)، تناول فى صور طريفة ولماحة وممتعة تقييمه لكل من الروائى الأمريكى «سنكلير لويس» والناقد الأمريكى والمفكر الاجتماعى «هـ. ل. مينكن» ومجموعة من أحسن الأدباء والنقاد الذين يحبهم، وعبر فيها عن نظرته العميقة الزاخرة بالدعابة والسخرية إلى التفاعل بين الأشخاص والقوى التاريخية، وكانت تعليقاته الخاصة تومض بكل تناقضات الطبيعة البشرية التى تجمع بين البطولة الشامخة والسذاجة العشوائية معًا. وبعد وفاة فرانكلين ديلانو روزفلت، كتب ليبمان: «إن الحكم النهائى على أى زعيم، يقاس بما تركه فى الناس من إصرار ويقين على المضى إلى الأمام». وهذا ما ينطبق على ليبمان نفسه، إذ لا يوجد صحفى جاء بعده، يستطيع أن يغفل أو يتجاهل أو يتناسى مما خلفه من شفافية ولماحية وبلاغة فكرية كانت بمثابة السهل الممتنع فى صحافة العصر.

وكان البريق الصحفى المحيط بشخصية ليبمان، قد جذب الأنظار بعيدًا عن دوره الذى لا يقل فى قيمته عن ريادته الصحفية، وهو دور المؤرخ الذى يكتب ويرصد ويحلل من واقع خبرته العملية وتجربته الشخصية، وليس من مجرد المراجع التاريخية. فمن الصعب وجود حكم من أحكام التاريخ المعاصر، له وزنه وقيمته، إلا ويدخل فى نطاق الدائرة الفسيحة لتفسيراته للمجتمع وتحليلاته للسياسة العامة. وقد تجلت هذه الظاهرة منذ ظهر كتابه الفريد «دعائم الدبلوماسية» (١٩١٥) حتى كتاباته عن العلاقات السوفييتية الأمريكية: «نحن والعالم الشيوعى» (١٩٥٩)، و«الاختبار القادم مع روسيا» (١٩٦١)، وفى أثناء هذه المرحلة كتاباته عن الحضارة الغربية مثل كتابة «العزلة والتحالفات» (١٩٥٢)، وكتابه «الوحدة الغربية والسوق المشتركة» (١٩٦٢) وكانت الولايات المتحدة هى المحور، الذى انطلق منه لتناول هذه الموضوعات المتعددة والقضايا المتشعبة، والذى كان يعود إليه من حين لآخر للتركيز على العلاقات الجدلية فيما بينها. ومن هنا كانت النظرة الفكرية المتسقة التى تتمتع بها كتاباته، والحكمة التى تسرى فى كل أفكاره وتوجهاته.

كان على يقين بأن الولايات المتحدة يعوزها خلال القرن العشرين، سياسة خارجية متبلورة وثابتة بحيث تكون مقبولة من كل الأطراف المعنية. وبسبب هذا

القصور أصبحت تبدو عاجزة سواء فى مجال الإعداد للحرب أو صيانة السلام، وهذا واضح فى أغلبية الحروب التى دخلتها، واتفاقيات السلام التى وقعتها بعد أن أتت حروبها على الأخضر واليابس. وكان ليبمان يرى أن الولايات المتحدة كانت لها سياستها الخارجية الحكيمة منذ تلك الفترة التى تلت حرب ١٨١٢ حتى نهاية الحرب مع أسبانيا عام ١٨٩٨. والتزمت سياسة البلاد طوال القرن الأول من تاريخها، بحدود مياهها الإقليمية، وإن كان الشعب قد انقسم على نفسه فى انتخابات الريسة عام ١٩٠٠ بشأن نتائج الحرب مع إسبانيا. ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع الرئيس أن يعتمد فى سياسته الخارجية على تأييد يتفق عليه الشعب.

ومنذ أعلن مبدأ مونرو الرئيس الخامس للولايات المتحدة (١٨٢٥) حتى نهاية الحرب مع إسبانيا، لم يكن لدى الشعب الأمريكى أى اهتمام بوضع سياسة خارجية، وكان النسيان أو التغاضى هو السمة المميزة للسياسة الخارجية، وهو وحده الكفيل بتسوية أى جدل أو حوار مع الأيام. وفى هذا يقول ليبمان: «ما من سبيل للتفكير فى سياسة خارجية دون الحفاظ على المبدأ القائل بأن الشعب يحقق أهدافه كما يحقق قوته على حد سواء، وأن تكون نواياه متفقة مع وسائله، ووسائله مساوية لنواياه، وأن تتفق التزاماته مع قدراته، وقدراته مناسبة لالتزاماته». ويهدف ليبمان بهذا التكرار أن يركز على جدلية العلاقة بين الوسائل والغايات.

ولم يقف ليبمان موقف الخصومة مع أى رئيس أمريكى بداية من تيودور روزفلت حتى ريتشارد نيكسون، لكن كان كل ما يأخذه عليهم فشلهم فى تطبيق هذا المبدأ الذى أدى إلى فشل سياستهم. فقد فصلت أمريكا بين الحرب والسلام فوقعت فى الخطأ المميت الذى يفصل بين الوسائل والغايات، فكانت النتيجة أن الوسائل فشلت فى تحقيق الغايات لأن الكفتين لم تتعادلا، سواء على مستوى الكم أو الكيف. فلم يكن هناك حساب دقيق لاعتبارات التسليح والمواقع الاستراتيجية أو الحلفاء المحتملين أو الأعداء المتوقعين، رغم أن من حتميات السياسة الخارجية أن تتوازن الوسائل والغايات، كما أن على الشعوب أن تؤدى ثمن ما تريد، فى حين يتحتم عليها ألا تريد إلاّ ما تقدر على أداء ثمنه. وقد فشل الأمريكيون لأنهم كانوا على الدوام ضحية الرأى المبتسر عن تخوفهم وحدودهم وقواتهم العسكرية وعن حلفائهم أيضًا. ولم يكتف ليبمان بهذا النقد التنظيرى العام، بل أبدى رأيه بصورة قاطعة بقوله:

«إنما أعنى بالالتزام الخارجى ما يتخطى الحدود القارية للولايات المتحدة، وهو ما يؤدى فى النهاية للتصدى له إلى إعلان الحرب. كما أعنى بالقوة القدرة على الإرغام الذى يحول دون وقوع الحرب، أو كسبها إذا تعذر منعها، ومما يدخل فى مضمون القوة

الضرورية، القدرة على الإرغام العسكرى، الذى يمتاز بحرية الحركة داخل حدود الولايات المتحدة، كما يمتاز بالتعزيزات التى يمكن أن يمدنا بها حلفاؤنا الذين يعتمدون علينا».

والمحور الأساسى الذى يدور حوله فكر ليبمان فى السياسة الخارجية يتمثل فى موازنة التزامات الشعب بقوته، وتكوين قوة كبرى قد تدعو الحاجة إليها لكنها لا تثقل عليه. يعبر ليبمان عن هذا التوجه فيقول فى وضوح وشفافية:

«إذا أمعنا النظر فى المثل، والدوافع، والمطامح التى تجد تأييدًا فى الخارج بحكم أن قياس قدرة أصحاب القرار، يتجلى فى حقهم الشرعى فى حشد ما يقدرون على حشده من القوات فى أرض الوطن، وما يجدونه من عون خارجى من شعوب لها نفس المثل والدوافع والمطامح. وقد يختلف الحد الذى يمكن أن يقف عنده هذا التوازن الخالص، كما يختلف تمامًا بين أسرة فقيرة وأخرى ميسورة وثالثة ثرية، ولكن الأساس يجب أن يكون معروفًا وأن يتحقق ليحول دون وقوع الكارثة».

ويستشهد ليبمان ببداية تاريخ الولايات المتحدة من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٨٢٣ بما شابها من خصومات مريرة غائرة، فى النفوس، مما دعا الرئيس جورج واشنطون إلى إعلان خوفه على الجمهورية من كوارث الفرقة والتخرب، وهو يلقى خطاب الوداع عند انتهاء مدة رياسته. فقد كاد التحزب لفرنسا والتحزب لبريطانيا أن يقودا البلاد إلى الحرب الأهلية، مرة مع هذه وأخرى مع تلك. ويطغى على كفاح الشعب للمحافظة على كيانه، ما يتوقعه من التدخل المسلح للقوى الكبرى المتجمعة فى وسط أوروبا، وقد سرت إشاعات بالانفصال وخاصة بين ولايات نيوإنجلاند. وفى غياب منظور موحد عن وسائل وغايات السياسة الخارجية، بدت الصورة مأسوية خاصة عندما ثارت أزمة أعراق المواطنين، والتى جعلت الأمريكيين يبدون قبائل متناثرة.

ويركز ليبمان على عام ١٨٢٣، عندما قام ثلاثة من ولاية فرجينيا هم جيمس مونرو، وتوماس جيفرسون، وجيمس ماديسون، بوضع تصور قومى لآليات السياسة الخارجية الأمريكية وتقديم حلول لمعضلاتها. ومع مبدأ مونرو والتفاهم الضمنى الذى انطوى عليه، وإن كان ارتباطه بالقوة البريطانية واضحًا للغاية، فإن التوافق تم بين الالتزامات والدوافع الحيوية. ولم يقف هؤلاء الفرجينيون وحدهم فى الساحة، لأنهم جميعًا قاموا بإعلان المبادئ التى تنهض عليها السياسة الأمريكية الخارجية دون استهواء لمشاعر الجماهير، أو استجابة لأى إلحاح عنصرى أو عرقى أو لأى جماعة من جماعات الضغط. ويعرّف ليبمان الدوافع الحيوية بأنها تلك الدوافع التى لا يختلف الجميع فى الدفاع عنها حتى الموت. ومع هذه الثقافات العديدة،

والقوميات المتنوعة، تعلو مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد وبقائه. وحتى المهاتما غاندى الذى مارس المقاومة السلبية، لم يحسب لحياته أى حساب فى مواجهة الدفاع عن الدوافع الحيوية للجماعة، فمثل هؤلاء الرجال على استعداد للإضراب عن الطعام حتى الموت جوعًا أو التضحية بحياتهم ولا يهجرون مبادئهم.

وتتمثل الدوافع الحيوية للولايات المتحدة فى كتابات ليبمان المبكرة، فى الدفاع عن حدود الوطن المعترف بها. ولم يحجب إعجاب جيفرسون بفرنسا ما يمثله وجود الجيش الفرنسى المعسكر فى ولاية نيو أورلينز عند منبع نهر المسيسيبى من تهديد، وقد أدى شراء لويزيانا إلى حصول الولايات المتحدة على الأراضى اللازمة لحماية نيوأورلينز، واعترف جيفرسون بحقائق الدوافع الأمريكية، وإن لم ينل تأييد المحكمة العليا إلا بعد ذلك بخمسة وعشرين عامًا، واستقرت أوضاع هذا الوطن القارى الأمريكى الأكبر، ولكن السنوات التالية شهدت حاجة هذه الامتدادات القارية على الحدود الكندية والمكسيكية ومن الأطلنطى إلى الباسفيكى، إلى مواقع خارجية وامتدادات قارية جديدة للدفاع القومى. وكان الغزو الفرنسى للمكسيك عام ١٨٦١ قد أغضب الأمريكيين، فلم يأت عام ١٨٧٣ حتى كان نصف الكرة الغربى داخل الحدود المعترف بها، وأصبح ركيزة لنظام الأمن ومحور القوة فى النظام الدولى الأبعد مدى.

ويفصل بين الولايات المتحدة وجيرانها ما دعاه ليبمان محيطًا من الماء والهواء، وليست أمريكا الشمالية والجنوبية سوى جزيرتين فى هذا المحيط كما أنهما جزيرتان، كل منهما متصلة بالأخرى، فأمريكا الجنوبية حتى أسفل الذيل البرازيلى أقرب إلى أوروبا، فى حين أن أمريكا الشمالية أقرب لبريطانيا وأوروبا الغربية وروسيا واليابان منها إلى أمريكا الجنوبية والصين أو جنوب المحيط الهادى، فى حين أن أقرب جيران أمريكا من القوى الكبرى هم بريطانيا والاتحاد السوفييتى (السابق)، واليابان وكذلك ألمانيا التى استطاعت لمرتين أن تهدد التوازن النمطى باجتياح واحد أو أكثر من القوى الكبرى لتصبح أقرب جيران أمريكا. وبما أن الدفاع عن أمريكا الجنوبية كان دافعًا حيويًا للولايات المتحدة، وبما أن أمريكا قاصرة عن إعداد قوة عسكرية أساسية على أراضيها، وبما أنها كانت عرضة للتهديد من جانب قوة كبرى تجتاح نصف الكرة الشمالى، ولمنع أى تهديد لأمريكا اللاتينية، يصبح من الضرورى على أصدقاء الولايات المتحدة الكبار أن يفوقوا أعداءهم قوة أو يتساووا معهم على الأقل.

وتبدو مسئولية الولايات المتحدة الجسيمة فى أوضح صورها، بالتزامها بالدفاع – فى حالة وقوع حرب – عن الأرض والجو والبحر من ألاسكا حتى الفيليبين، من

جرينلاند حتى البرازيل. وقد استطاعت أن تحمى تلك المنطقة الشاسعة، إلا فى حالات استثنائية، من أى سيطرة عسكرية لقوة كبرى خارجية. وبسبب تفوق القوات المشتركة للعالم القديم تفوقًا ساحقًا علـى قـوات نصف الكرة الغربى، فـإن أمريكا لا تسمح لأى مكان فى نصف الكرة الغربى أن يقع تحت سيطرة قوة كبرى حاكمة أو أى قوى، تستطيع أن تتسلل بنفوذها إلى الولايات المتحدة. ولكى تضمن حكاية نصف الكرة الغربى، فإن عليها أن تحافظ على توازن القوى فى أى مكان في العالم، وقد يؤدى تغير تكنولوجيا الحرب إلى تغيير نظام الدفاع الأمريكى، وقد تضطر إلى تغيير بعض حلفائها طبقًا لمقتضيات أمنها، فهذا هو طابع القوة الذى تعيشه الولايات المتحدة.

وفى كتابه «أهداف الولايات المتحدة من الحرب» (١٩٤٤)، يرى ليبمان أن مبادئ ميثاق الأطلنطى، والحريات الأربع لا تستوعب كل الأهداف التى دار حولها الجدل، وإن بدت نورًا يهدى الشعب طريقه، لكنها لم تكن من المعالم التى ترشد بدقة شعبًا مهيض الجناح نحو الإمام. فقد كتب ليبمان: «إن السلام الذى يمكن أن نحصل عليه... هو السلام الذى رسمته نيران الحرب، ومن العبث أن ننكر هذا السلام وندعى أننا قادرون على غيره». وقد قام السلام على علاقات ثابتة وطيدة بين الحلفاء، وتم الاعتراف بقيام كتلتين: كتلة الأطلنطى، وكتلة السائرين فى الفلك السوفييتى. وكما يقول ليبمان إن روسيا كتلة أرضية متماسكة لاثغرات فيها، فى حين أن الولايات المتحدة عبارة عن نواة فى جماعة الأطلنطى، وبين روسيا والعالم الغربى شكوك تمتد جذورها إلى زمن بعيد، زمن الانشقاق الدينى فى العصور الوسطى المظلمة التى قسمت الكنيسة إلى كنيستين: كنيسة روما وكنيسة بيزنطة.

فى هذا الإطار التاريخى، تقصى ليبمان أهداف الولايات المتحدة من الحرب، وتمثلت فى تعزيز الروابط الاستراتيجية والدبلوماسية بين أعضاء جماعة الأطلنطى، والتسليم بالوضع الاستراتيجى للكتلة السوفيتية واستيعابه، بما فيها الدول الواقعة إلى الشرق من ألمانيا وإلى الغرب من الاتحاد السوفيتى، والتسليم بوضع الصين كإطار ثالث للاستراتيجية، استطاع أن يشغل الحيز الأكبر من شرقى آسيا، والتسليم بأن لكل من الشعوب الإسلامية والهندوسية والشمال الأفريقى (المغرب) والشرق الأوسط، استراتيجيته الخاصة التى يراها لنفسه، والتسليم بأن أى تسوية فى الشرق الأقصى أو أوروبا يجب أن تستبعد اليابان وألمانيا من أى ميزان للقوى الكبرى فى المنطقتين، والتسليم بأن أى تسوية تعقب الحرب، لابد أن ترتبط بنزع سلاح دعاة الحرب، وحماية دعاة السلام بأن تجعل من الهزيمة نهاية حاسمة، ومن السلام بداية قوية.

ويرى ليبهان أن جورج كليمنصو رئيس وزراء فرنسا، كان على حق فى تسويات السلام لما بعد الحرب العالمية الأولى، وأن الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون كان على خطأ لأنه غفل فيها يتصل بألمانيا بأن يكون السلام عامة بديلاً لسلام من نوع ما بهذه البساطة؛ لأن ويلسون قضى على التآلف الذى كسب الحرب، وقام وحده بتدشين التسوية، وأثار خصومة مؤذية لا جدوى منها مع إيطاليا حول ميناء فيومى. وفى الخصومة التى استغلها جبرائيل دانزيو، بدأت الفاشية تفرخ فى إيطاليا. وبعد الحرب العالمية الثانية أخذ ليبهان يؤكد بأن السلام يجب أن يقوم محددًا وواضحًا وفقًا لأوضاع العالم فى تلك الفترة، وعلى قوى الحلفاء المشتركة أن تحمى السلام.

وفى كتابه «الحرب الباردة» (١٩٤٧)، تصدى ليبهان للادعاءات المعيبة فى مبدأ ترومان الذى تبلور فى الاستراتيجية الأمريكية للأمن القومى والسياسة الخارجية، والتى أصدرها فى ٣٠ سبتمبر ١٩٥٠، كوثيقة شاملة أسست برنامج عملها على أساس نظرية الاحتواء التى كانت قد أصبحت رسميًا، فى نهاية الأربعينيات وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، الاستراتيجية الكبرى للولايات المتحدة. فى مواجهة العدو الجديد (الاتحاد السوڤييتى)، والإطار الذى تدور فيه كل علاقاتها الدولية وقراراتها السياسية. وكان المقصود بالاحتواء فى البداية، كما حدد جورج كينان مفهومه، هو الوقوف بالمرصاد لاحتواء أية محاولة للتوسع الشيوعى يسعى الاتحاد السوڤييتى لتحويلها إلى أمر واقع، لكن الإدارة الأمريكية التقطت الخيط لتحوله إلى احتواء النفوذ السوڤييتى داخل دائرة عالمية من الحصار، تتكون من الأحلاف والقواعد العسكرية والعلاقات الثنائية، بالإضافة إلى إدارة الصراع معه عن طريق إثارة حروب اقليمية أو أهلية، تضعف تأثيره وقدرته على التوسع، وكذلك عمليات الانقلابات والاغتيالات السياسية وغيرها.

وفى نفس عام صدور كتاب ليبهان «الحرب الباردة» (١٩٤٧)، نشر جورج كينان مقالته الشهيرة «مصادر السلوك السوڤييتى» التى لم تستوعبها قطاعات من المتعلمين بل والمثقفين الذين أساءوا فهمها عندما اعتبروه منظر سياسة الحرب الباردة، من منطلق أنه بهذه المقالة صاغ مفهوم سياسة الاحتواء، وقدم الأساس النظرى والفلسفى لهذه السياسة التى تبنتها إدارة ترومان، وبررت بها سياسة الأحلاف والقواعد العسكرية والحروب الإقليمية والانقلابات والاغتيالات السياسية؛ بهدف احتواء الاتحاد السوڤييتى. لكن صفوة صغيرة من المفكرين هى التى تابعت التطور الفكرى لجورج كينان، منذ نشرة لمقالته وعمله على تصحيح المفاهيم الخاطئة إلى الحد، الذى جعله ينكر أبوته لهذه النظرية ومحاولات تطبيقها فى سياق مختلف عن ذلك الذى

ولدت فيه. وكان ليبمان على رأس هذه الصفوة الصغيرة، التى حاولت تقنين مفهوم الأحتواء كما أراده كينان، ولكنها لم تستطع أن تصمد فى وجه أجهزة الإعلام وأبواق الدعاية الأخطبوطية القادرة على تسويق أى فكرة لحسابها، حتى لو لم تكن من ابتكارها.

ولذلك جاءت استراتيجية الأمن القومى، لتضع برنامج عمل تنفيذيًّا لنظرية الاحتواء. وكانت المجموعة المكلفة بها من كبار الخبراء وصناع القرار الذين بدأوا جلسات مناقشاتهم فى أواخر الأربعينيات. ولم يخرجوا فى صياغتهم للوثيقة على حدود استراتيجية مبدئية، كانت قد وضعت بالفعل تطبيقًا لخطوات وقرارات سياسية للرئيس ترومان، تهدف إلى بلورة أهداف محددة عن دور أمريكا فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

اتفق ليبمان مع كينان على أن القوة السوفييتية تقوم على التوسع، إذا لم تواجهها قوة مضادة فى المواقع التى تختارها أمريكا، إلا أن سياسة الاحتواء قد اختارت أن تواجه السوفييت فى مواقع مناسبة لهم، وألقت بالمبادرة فى أيدى السوفييت، وتصورت وضعًا للقوات المسلحة الأمريكية لا يناسبها، ويهدد بالخطر علاقة أمريكا بحلفائها الطبيعيين فى تجمع الأطلنطى. وقد يبدو إخلاء أوروبا من القوات العسكرية الأجنبية، سياسة أكثر جدوى، ولكن بقاء الجيش الأحمر فى وسط أوروبا كان فى نظر ليبمان بمثابة المعضلة التى لا حل لها، بحيث اعتبر الانسحاب هو الوسيلة الوحيدة لاختبار نوايا السوفييت؛ لأنه الأساس الذى يعيد للدول الأوروبية، استقلالها. ولذلك كان ليبمان يؤيد مشروع مارشال، فى حين كان يعارض مبدأ ترومان ويرى أنه استراتيجية عقيمة لأن روح العداء عندما تنتشر، فإنها تسرى كالنار فى الهشيم، وغالبًا ما تعم الخسارة جميع الأطراف المتورطة فيها.

وفى كتابه «العزلة والأحلاف» (١٩٥٢)، يدعو ليبمان كعادته إلى فهم أعمق وأشمل للمتغيرات العالمية، التى أثرت فى سياسة أمريكا الخارجية منذ عام ١٩٤٠، بعد أن أصبحت المصالح الأمريكية والبريطانية فى شبكة واحدة، هى التى أشار إليها رئيس الوزراء البريطانى التاريخى ونستون تشرتشل فى حديثه إلى الاجتماع المشترك لمجلس الكونجرس عام ١٩٥١، وكأنه وزير يسعى لكسب ثقة مجلس لا يؤيده. وكانت سياسة أمريكا الخارجية قد مرت بمرحلتين: الأولى «العزلة» وقد استمرت حتى بداية الحرب العالمية الثانية باستقطاب القوة الأمريكية للقارة حتى الفيلبين وجزر المحيط الهادى. والمرحلة الثانية ظهورها كقوة أساسية فى الميدان العالمى، واضطلعت الولايات المتحدة فيها بإقامة تحالف جديد سياسى وعسكرى واقتصادى.

وأصبح أمن أوروبا الحرة والدفاع عنها ضرورة حتمية للأمن الأمريكى. وتمثل هذا الهدف المشترك فى تحالف أوروبا والسعى لحل المشكلة الألمانية، التى صارت المحور الذى دارت حوله الحرب الباردة.

وعاد ليبمان فى كتابه «الفلسفة العامة» (١٩٥٥) إلى ما كان يقلقه دائمًا ويتمثل فى سقوط المجتمع الغربى بين شقى الرحى: الانحلال والإحياء، واستمرار هذا الصراع لا يمكن أن يكون فى صالح الإحياء نظرًا لأن مغريات الانحلال تأتى دائمًا على شكل طوفان جارف وممتع لكثيرين، نظرًا لاعتماده على المد الغريزى المواتى داخل النفس البشرية، فى حين أن الإحياء هو جهاد النفس فى أشد خصائصه وعورة. كان ليبمان يعتبر أن القضية المحورية لأى مفكر وكاتب، فى أى فرع من فروع الثقافة هى قضية حضارية فى الأساس. ولذلك كتب عن أمراض الدول الديمقراطية، وخلل القوى والمصالح العامة، وتجلى حماسه فى الدفاع عن أخلاقيات الذوق والرقة واللطف والوداعة والبساطة والنقاء، متمنيًا أن تصبح بمثابة الفلسفة العامة لكل الأمريكيين الذين دعاهم لاكتشاف تراثهم ومثلهم، والإلمام بالقوانين العامة التى تعتبر من بدهيات السلوك الإنسانى الراقى. ورغم ما قوبل به كتاب «الفلسفة العامة» من نقد حاد، حين حاول التوفيق بين القانون الأخلاقى والقانون الطبيعى، من منطلق أن روح القوانين واحدة مهما اختلفت المادة التى تتعامل معها، فإنه نجح فى جذب الانتباه نحو المصالح المشتركة بين الأمريكيين وأصدقائهم فى الخارج، كما تجلى إيمانه بقداسة الروح البشرية، وهذه هى قمة الحكمة الفكرية.

وفى عام ١٩٦٦، غادر ليبمان واشنطون بعد ثمان وعشرين سنة ليعود إلى نيويورك حيث عاش حتى وفاته عام ١٩٧٤. وقد قلت كتاباته فى تلك الفترة، لكنه ظل يحظى باحترام صانعى السياسة لأفكاره الثاقبة والصائبة، حتى أولئك الذين يخالفونه الرأى. وكان دائمًا نصيرًا وداعية للسلام مثل توأم فكره جورج كينان، فقد وقف خلال الخمسينيات إلى جانب قرار الأمم المتحدة الخاص بكوريا، وجند الهدنة لإتاحة الفرصة كاملة للتسوية السياسية، ولذلك عارض تقدم الجنرال دوجلاس ماك آرثر إلى نهر يالو. أما بخصوص ڤيتنام، فكان يخشى منذ البداية أن يؤدى توسط الأمريكيين إلى حرب برية على أراض صينية. وعاد مرة أخرى إلى فكرته عن القوة الإقليمية، وأخذ يعارض الاتجاه الأمريكى فى الالتزام الزائد بما لا يعنيها من مصالحها الحيوية، مما أكد مكانته كأحد حكماء عصره فى السياسة الأمريكية.

ولم تكن أفكار ليبمان لتلقى قبولاً لدى عديد من الرؤساء الأمريكيين، واحدًا بعد الآخر، أو لدى وزراء الخارجية، ومع ذلك ظل يحتل مكانة سامقة بين الذين قد

يختلفون معه فى الرأى. وأثبتت الأحداث صدق معظم توقعاته المبنية على فروض علمية ومنطقية صادرة عن خلفية فكرية وثقافية وحضارية فى غاية الثراء والخصوبة. وتتمثل قدرته فى المبادئ والقيم والمثل، التى نادى بها سواء فى كتاباته أو أحاديثه، أكثر مما تتمثل فى الخطط والتطبيقات التى أشار إليها. وقد ساعده على الاحتفاظ باستقلاله أكثر من أى كاتب أو صحفى من البارزين، أنه ظل بعيدًا عن أعضاء الصفوة الذين يديرون السياسة الخارجية التى تتمركز فى مركز العلاقات الخارجية بنيويورك.

وكان ليبمان قد وضع مستويات فى الفكر والأداء للمعلقين، لم يستطع أن يسايرها سوى قلة، فقد كان عاشقًا للإجادة والإتقان. وكتب عنه ريتشارد روفير: «على كل صحفى وكل من له اهتمام باللغة الإنجليزية أن يلم بأسلوبه فى الكتابة، فقد استوى على القمة بين أساطين الكتاب الأمريكيين المحدثين. كما ينوه روفير بالمضمون الفكرى والعلمى والحضارى لكتبه ودراساته فيقول:

«بمراجعة أعماله ككل فإننى رأيت فيها من الكمال فوق ما كنت أتوقع.. فقد استطاع أن يدرك معنى الوجود العسكرى والسياسى للسوفييت من البلطيق إلى البلقان، وتنبأ بخلل النظام فى الصين الوطنية (تايوان)، كما توقع المشكلات التى نجمت عن تعميم مبدأ ترومان، ولكن المؤرخين قد يتعذر عليهم تقييمه تقييمًا كاملاً، إذا كان تقييمهم مقصورًا على حكمته الاجتماعية والسياسية.. فقد استطاع أن يجسد أجمل ما فى التقاليد الليبرالية والإنسانية، وأضفى على الصحافة الأمريكية هيبة ووقارا».

والآن بعد مرور أكثر من ثلث قرن على رحيله فى عام ١٩٧٤، فإن الصحافة الأمريكية لم تعرف مفكرًا وكاتبًا فى قامته، ولم يحتل مكانته آخر إذ ليس هناك نظير له، حتى الآن على الأقل. فمثلاً كان المقال الذى يكتبه ليبمان مرتين أسبوعيًّا تحت عنوان «اليوم وغدًا» ينشر فى وقت واحد فى أكثر من مائتى صحيفة داخل الولايات المتحدة وخارجها، طبقًا لترتيب خاص مع الجهة التى يفوضها بتوزيع هذه المقالات والتى كانت قبل عام ١٩٦٣ صحيفة «هيرالد تريبيون»، وبعدها صحيفة «واشنطن بوست». وقياسًا على هذا الترتيب، فإن ليبمان ضرب الرقم القياسى العالمى فى عدد قرائه الموزعين بالملايين بين مختلف قارات العالم، مما جعله رائد المعلقين الصحفيين فى العالم أجمع، بالإضافة إلى أنه أمضى أكثر من خمسين عامًا فى كتابة التعليقات السياسية فى الصحف.

وقد أصبحت آراء ليبمان بمثابة المقاييس أو المعايير الصحفية والسياسية التى يقاس بها مدى صواب وآراء المعلقين فى العالم الغربى بدرجة اقترابها أو اتفاقها مع

آرائه، التى أصبحت من أساسيات الفكر الصحفى مثل قوله: «لقد علمتنى الحياة الصحفية ألا أرتبط بصداقات وثيقة حتى أبقى دائمًا موضوعيًا فى تعليقاتى»، وقوله: «مع تطور الصحافة الحرة، أصبحت القضية الأساسية تتمثل فى أن الصحفى، مثل العالم أو الدارس الأكاديمى، يمكن أن يضع الحقيقة فى صدارة أولوياته أم يتركها تتراجع إلى الخلف»، وقوله: «إن الحرب العالمية الأولى أثبتت أن هناك من القيود على الرأى العام ما لا يمكن تجنبه»، وقوله: «إن الناس يتحركون ويتصرفون طبقًا للصور التى رسمتها الدعاية فى أذهانهم، وعادة ما تكون هذه الصور انعكاسات غير كاملة للحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية»، وقوله: «البشر لديهم وقت ضيق وفرص قليلة ليتعرفوا إلى بيئتهم وإلى بعضهم البعض، ولذلك فإن من الأسهل عليهم أن ينقادوا لنسخة من الأحداث الجارية مبسطة وليست دقيقة بالضرورة»، وقوله: «إن البشر ليس لديهم الاهتمام أو الدراية بتفسير مجريات الأمور»، وقوله: «إن وسائل الاتصال فى المجتمع الحديث تقدم فقط صورة محدودة وبالتالى محرفة للأحداث، سواء عن قصد أو غير قصد».... إلخ.

وعندما كان ليبمان يقوم برحلة إلى بلد ما، من الرحلات التى اعتاد أن ينظمها كل شتاء، فإن المسئولين فى هذا البلد يترقبون كتاباته وانطباعاته التى ينشرها سواء فى أثناء رحلته أو بعد عودته إلى الولايات المتحدة، ويقرأونها بعناية لا تحظى بها تقارير سفرائهم. وليس من عادته أن يطلب زيارة أية دولة أو الالتقاء بأى قطب من أقطاب العالم، وإنما الدول المختلفة هى التى تلتمس زيارته لها وتستقبله، إذا وافق على الزيارة، كما تستقبل كبار الرسميين. وبعض سفراء الدول الأجنبية عندما يحملون أوراق اعتمادهم إلى الرئيس الأمريكى، يحملون أيضا رسائل خاصة إلى ليبمان لكى يقنعوه بالكتابة عن بلادهم. وقد زار ليبمان موسكو مرتين بدعوة من حكومتها، ودارت حوارات بينه وبين الزعيم السوفييتى التاريخى نيكتيا خروشوف خاصة بشأن الحرب الباردة والعلاقات الثنائية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى. وعندما زار خروشوف الأمم المتحدة فى دورتها عام ١٩٦١، قال إن ليبمان؛ هو واحد من ثلاثة صحفيين يتحرون الموضوعية والدقة والنزاهة فى الكتابة عن الاتحاد السوفييتى، أما الآخران فهما ماكس فرانكل وهاديسون سالزبورى، وكلاهما من كتاب صحيفة «نيويورك تايمز».

وأجيال الصحفيين الأمريكيين التى حملت مسئولية العمل الصحفى، سواء فى عهد ليبمان أو بعده، ظلت تفخر بأنها من أبنائه وتلاميذه الذين تعلموا الكثير فى مدرسته الصحفية، وخاصة هؤلاء الذين تخصصوا فى الكتابة عن السياسة الخارجية. فقد انكبوا على دراسة كتبه التى ظل يصدرها منذ عام ١٩١٣، ومقالاته التى نشرت

فى شتى أرجاء العالم، ليستخرجوا منها المناهج الصحفية والفكرية التى تهديهم سواء السبيل ، سواء فيما يتصل بأساليب الصياغة والشفافية فى التعبير أو الموضوعية فى العرض والتحليل، أى كل ما يتصل بالشكل اللغوى والمضمون الفكرى فى العمل الصحفى الذى يفترض فيه أن يصوغ عقول الجماهير، ويمدها بالوعى الذى يمكنها من الحكم السديد على مختلف القضايا والمشكلات المطروحة على الساحة.

وفى سبتمبر ١٩٥٩ ، عندما كان ليبمان يحتفل بعيد ميلاده السبعين، أقام له نادى الصحافة فى واشنطن حفل تكريم، تحدث فيه ريتشارد نيكسون نائب الرئيس أيزنهاور فى ذلك الوقت، كما أصدر اثنا عشر من تلاميذه من المؤرخين والمعلقين ورجال السياسة، كتابًا خاصًا عنه، وهو شرف لم يحصل عليه أى صحفى أمريكى، وهو على قيد الحياة. وفى هذا الاحتفال، قال ليبمان إن التعليق على الأنباء مسئولية خطيرة. وعندما سئل عن سر نجاحه، قال بمنتهى البساطة والسلاسة: أولاً أنا لا أكتب أبداً فى موضوع لا ألم به إلمامًا كافيًا، وثانيًا: أنا أتجنب التنبؤ بأحداث المستقبل أو توجيه النصح والإرشاد، فكم من خطايا ترتكب باسم «السبق الصحفى»، الذى يفترض فيه أن مفهومه الفكرى الناضج يقتصر على بلوغ آفاق جديدة فى التفسير والتحليل لم يبلغها أحد من قبل، حتى لو كانت مضادة لكل التفسيرات السابقة، بشرط أن تكون على أسس منطقية وعقلانية وواقعية وتضيف إضاءات لمناطق وزوايا، كانت معتمة أو مبهمة أو مجهولة. ولذلك يحدد ليبمان مهمته الصحفية والفكرية بأنها شرح وتفسير أحداث جرت بالفعل وتحتاج إلى تنوير جوانبها. وهناك قضايا وظروف كثيرة تقع كل يوم، يحتاج القراء إلى تفسير لها بلا أية مؤثرات جانبية، يمكن أن تكون بمثابة حواجز أو عقبات فى سبيل استيعابها على وجهها الصحيح.

وكان فكر ليبمان يتألق دائمًا فى المواقف المصيرية، التى تمر بها الولايات المتحدة والتى كان كبار القادة والمسئولين يرون فيها ضرورة الاستنارة بآرائه؛ حتى لا يدخلوا فى طرق مسدودة أو أنفاق مظلمة. فمثلاً كان من أول الأعمال التى قام بها الرئيس جونسون عقب توليه الرئاسة أثر مصرع كينيدى، هو قيامه بزيارة ليبمان فى بيته. فليست له أية انحيازات أو انتماءات حزبية أو مذهبية، لأنه كان يؤمن بأن الصحفى أو الكاتب أو المفكر الحر قولاً وفعلاً، هو الذى ينأى بفكره الموضوعى عن الحركات الحزبية، التى هى فى حقيقتها تقنين أو تبرير لميول التعصب السياسى. وبذلك يستطيع فى أى موقف أو قضية أن يدافع بمطلق الحرية عن المثل والقيم العليا، التى عاشت على هديها الإنسانية عبر العصور. وقد يؤازر المذاهب والشخصيات ولكن بقدر احتفاظها بروح هذه المثل والقيم.

من هذا المنطلق، لم يكن هناك إطار سياسى محدد، يمكن أن يوضع فيه ليبهان، فهو يتخذ الموقف الذى يراه صائبًا وقادرًا على التفاعل المثمر مع المواقف الأخرى دون صراعات عقيمة. فمثلاً فى شبابه المبكر كان اشتراكيًا، وفى عام ١٩٢٨ كان متحمسًا للمرشح الديمقراطى للرئاسة، لكنه فى عام ١٩٣٢ شكك فى مقدرة روزفلت الديمقراطى، وفى عام ١٩٣٦ كان يفضل المرشح الجمهورى على روزفلت، وفى عام ١٩٥٢ ساند أيزنهاور، وفى عام ١٩٦٠ أيد كينيدى ضد نيكسون.

وكان سلوك الساسة والقادة مع ليبهان، يدل على أنهم وضعوه على مستوى يتخطى كل الانحيازات السياسية والاقتصادية، التى تمسك عادة بخناق الإدارة الأمريكية. فمثلاً كانت نزعته المتحررة واضحة أمام كل الأطراف المعنية، ومع ذلك ظل يعمل معظم سنى حياته كاتبًا لأشهر عمود فى صحيفة «هيرالد تريبيون»، التى تمثل مصالح رجال المال والأعمال فى الحزب الجمهورى (المحافظ)، وكان سعيدًا بالعمل فى هذه الصحيفة التى كانت بدورها فى منتهى الفخر به؛ فهو يعمل بجد ومثابرة طالما أن مجال العمل يمنحه حرية كاملة لتوصيل رسالته بالشكل الذى يرتضيه لنفسه، ولكنه كان على استعداد أيضًا لأن يترك هذا المجال نفسه، لو وجده ينحرف عن المسار الذى تحمس له عند البداية. وهذا ما فعله ليبهان بشأن حلف شمال الأطلنطى.

كان ليبهان، أكثر من أى شخص آخر، هو المخطط الأول لحلف شمال الأطلنطى، فقد دعا إليه قبل أن يبدأ التفكير الرسمى فى إنشائه، ومع ذلك فلم يلبث أن اختلف مع واحد من أبرز الذين أرسوا قواعد ذلك الحلف، وهو دين أتشيسون وزير الخارجية الأمريكى فى ذلك الوقت. ولم يتردد لحظة واحدة فى ترك الجمل؛ بما حمل لأنه كان يتعامل دائمًا مع نفسه قبل أن يتعامل مع الآخرين، الذين قد يكونون السبب فى فشله أو يكون هو قد فشل من تلقاء نفسه، وفى كلتا الحالتين فإنه كان ينسحب من المجال بإرادته ولا ينتظر من يلفت نظره إلى ذلك. فإذا كان يتحتم على الصحفى مواجهة حقائق الحياة لتعريف الآخرين بمعطياتها، فإنه من باب أولى يتحتم عليه مواجهتها لتعريف نفسه بها؛ بحيث لا يتركها تدخل به فى متاهات هو فى غنى عنها لتوفير جهده ووقته وطاقته وفكره فى مجالات أخرى إيجابية ومثمرة. وقد اعترف بصراحة أنه حاول أن يشتغل مخبرًا صحفيًا، ولكنه فشل لأنه لا يملك حاسة استكشاف الأخبار، وقد فاتته أخبار كثيرة كانت تصلح عناوين رئيسية (مانشتات)، لكنه كان يتعلم دائمًا من كل التجارب التى يمر بها، خاصة الفاشلة منها. فمثلاً تعلم من فشله كمخبر صحفى ألا يبحث عن الأخبار، وإنما مصادر الأخبار هى التى

تبحث عنه، إذ نجح فى نقل مركز الثقل من هذه المصادر إلى ذاته هو بكل تاريخها وإنجازها، بحيث أصبح كبار المسئولين يدعون أنفسهم إلى مائدته، ويتصلون به تليفونيا لإبلاغه بكل جديد.

وقد حصل ليبمان على جائزة بوليتزر فى «تحليل السياسة الدولية» عام ١٩٦٢، كما حصل على جائزة «نادى الصحافة» ثلاث مرات، باعتباره أفضل معلق على الأخبار الخارجية، كذلك حصل على أوسمة من بعض الحكومات الأجنبية. ومع كل هذه الأمجاد الصحفية التى حققها، فإن أبرز الصفات التى يتحلى بها تتمثل فى التواضع والرقة والبساطة وابتعاده عن التكلف والتصنع. وقد اعتاد أن يستمع كثيرًا ويتكلم قليلاً، وينصت لكل حديث، كما لو كان تلميذًا نجيبًا يجلس فى فصل دراسى. فكان مؤمنًا أن الصحفى يظل يتعلم طوال حياته حتى من أبسط الناس فكرًا وثقافة من الذين يقرأون الحياة وتجاربها على صفحاتها المفتوحة أمامهم، فى خضم خبراتهم، التى قد لا يمر بها كبار المثقفين. فالصحفى لا يدرس فى مدرسة الحياة فحسب، بل يعيش فيها بكل جوارحه ليل نهار.